رؤية نقدية لمقاربات النهايات، نهاية التاريخ أنموذجا

فيصل مبرك

أستاذ مساعد قسم –أ– بجامعة 20 أوت 1955– سكيكدة/ قسم العلوم الإنسانية

قَدْ بَدَأَ الْعَالَمُ الْيَوْمَ يَفْهَمُ أَنَّ مُهِمَّةَ فَهْمَ الْعَالَمِ لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْهَيِّنِ... (براتراند راسل).

إن الكلام عن نهاية التاريخ في خضم هذا الزخم الفكري هو في حقيقة الأمر أشبه بعودة نحو الوراء لمدة عشرين عاما مضت أو أكثر، وإن لم يكن هذا ضربا من السماحة فإنه أقرب للسذاجة، ليس تجاه فكرة نهاية التاريخ فحسب، ولكن شخصا مثل فوكوياما، الذي تعرض لانتقادات الكثيرين لا يمكن اعتباره مفكرا ولو من الدرجة الثانية حسب أحد المفكرين العرب[1]، فهو في أحسن الأحوال صحفي اختزالي انتقائي لا يمكن أن يكون فيلسوفا أو صاحب نظرية، أو مدافعا عن اتجاه إيديولوجي، لذا فإن جاك دريدا ينظر لكتاب فوكوياما على أنه إعادة نشر متسرعة للدراسات الأخروية المسيحية انطلاقا من تأويل معين لهيجل لصالح الدولة اللبرالية، وبعيدا عن هذا وذاك، فإنه من الحري بالباحث أن لا يتطرق لفكرة نهاية التاريخ بمعزل عن آراء فوكوياما المتأخرة وأعني بذلك تنازله على بعض الأفكار وتغييره لبعضها منذ سنة 2003م، ولعل كتاب نهاية التاريخ هو أحد الأسباب التي جعلت صامويل هنتنجتون أستاذ العلوم السياسية في هارفارد، يؤلف كتابه الذي تضمن نظريته عن "صدام الحضارات" بدلاً من نهاية التاريخ، وبينما لقيت نظرية هنتنجتون اهتمامًا واسعًا وتعرضت لمناقشات مستفيضة، ازدادت حدتها بعد أحداث سبتمبر الأخيرة والهجوم الذي تعرضت له واشنطن ونيويورك، واجهت نظرية فوكوياما عن "نهاية التاريخ" نقدًا لاذعًا. وقيل أن مارجريت تاتشر عندما سمعت عن نظرية فوكوياما، كان رد فعلها بالغ السخرية حين قالت: "نهاية التاريخ أم بداية الهراء؟!".

ورغم أن فوكوياما لا يحتاج إلى التكلم عنه بنوع من التبسيط أو الشرح لأنه يتكلم بلغة هي في غاية من البساطة والوضوح، إلا أن الموضوع يجب أن يدرس بصورة أدق مما يطرحه فوكوياما، لكي تعطى هذه الفكرة أبعادا عالمية أوسع وتربط بأفكار وعقائد أشمل، خاصة وأن موضوع نهاية التاريخ موضوع متداول على الساحة الفكرية والدينية بمفاهيم مختلفة، وبإيديولوجيات متعددة، لذا فإن طرح هكذا مواضيع يحتم على الباحث أن يخوض هذا الغمار بنوع من الجدية من جهة، والقلق والحيرة من جهة ثانية، كون الموضوع يمس مستقبل الإنسان ومصيره.

سأتناول في موضوعي هذا، فكرة نهاية التاريخ بنوع من التحليل والمقاربة وإبعاد الفكرة أبعادا أشمل قدر إمكاني، وذلك من خلال طرح ونقد فكرة فوكوياما، ومقارنة ذلك بما يجري على الساحة الفكرية والفلسفية العربية والإسلامية والعالمية، مستعرضا في ذلك بعض ما كتبه المفكرون في الموضوع على المستويين الديني والفكري.

وإن كان موضوعنا ليس هو نهاية التاريخ بقدر ما هو دراسة لنوايا الأدلجة في احتمالات النهاية عموما ونهاية التاريخ خصوصا، النهاية التي سيؤول إليها العالم، وأعتقد أن فكرة نهاية التاريخ ما هي إلا أعادة صياغة جديدة للسؤال التقليدي الذي طرحه الإنسان ولا زال يطرحه في كل عصر حسب ما تقتضيه حياة ذلك العصر، وهو: مصير الإنسان إلى أين؟ كيف؟ ماذا بعد؟ وما فكرة نهاية تاريخ إلا إجابة بطريقة ما على هذه الأسئلة، ذلك أن معنى نهاية التاريخ ليس نهاية تسلسل الأحداث العالمية، ومنه فهي ليست النهاية التقليدية التي كانت تظهرها لنا الديانات السماوية والأعمال الفنية المختلفة التي تدور حول نهاية الحياة وانقراض الجنس البشري، أو زوال هذا الكون.

تحليل نظرية نهاية التاريخ لفرانسيس فوكوياما:

من الأسباب التي جعلتنا نقول بان هناك نهاية لتاريخ البشرية واضحة، الحجة السيسيولوجية التي تتلخص في توجه الاجتماع الإنساني التلقائي نحو اللبرالية والديمقراطية بدافع الميغالوتيما، أما السبب الثاني وهو الحجة الاقتصادية المتمثلة وهو ما نسميه الدافع التيموسي[2].

في نظر فوكوياما أن العالم أيقن أن شرعية الديمقراطية اللبرالية كنظام للحكم بعد أن لحقت الهزيمة بالإيديولوجيات المنافسة مثل الفاشية والنازية والأنظمة الشمولية والديكتاتوريات الحديثة والشيوعية، وأضاف إلى ذلك بأن الديمقراطية اللبرالية قد تشكل نقطة النهاية في التطور الإيديولوجي للإنسانية[3].

يقول فوكوياما: "إِنَّ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ هِيَ نِظَامٌ خَالٍ مِنَ التَّنَاقُضَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَمَا يَظْهَرُ مِنْ مَشَاكِلَ وَمَظَالِمَ فِي الْعَالَمِ اللِّبِرَالِيِّ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْقُصُورِ فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَ التَّوْأَمَيْنِ (الْحُرِّيَةُ وَالْمُسَاوَاةُ)" [4].

يميز فوكوياما بين شكلين من أشكال الرغبة في الاعتراف، فالشكل الأول هو الإيزوتيما، وهي الرغبة في الاعتراف بنا كمتساوين مع الآخرين، بينما الشكل الثاني هو الميغالوتيما وهي الرغبة في أن يعترف بتفوقنا على الآخرين، وفقدان الإنسان لإحدى الرغبتين يسبب الغضب وهو الدافع للحراك السياسي والجمعوي والنخبوي والدافع لطارئ التغيير، وهو ما يسمى بالتيموس، التاريخ عند هيجل ليس مسرحا للأيام الرغيدة والجميلة والهادئة، بل هو صراع دائم وشرس من أجل افتكاك الاعتراف والتقدير من الآخرين، ثمة تجد فرانسيس فوكوياما يتكلم عن التفاؤلية التي كانت تتكلم بها الفلسفة الحديثة، هذا التفاؤل الذي أنتج الحرب العالمية الأولى والثانية والأزمات المختلفة، وهو ما ولد من جديد نزعة تشاؤمية في قراءة التاريخ، وإن التأكيد على هذا العامل كحاسم في فهم الصراعات والنزاعات –عبر التاريخ– أو تفسيرها، أمر معقول مقبول أحيانا، وقد يعتبر الغضب ذا دور مهم في مركزية التاريخ وتحريك السياسة وبلورة الإيديولوجيا، وهو ما يسمى بالمقاربة السيكو سياسية التيموسية، ولكن الرهان على التيموس في حركية التاريخ يجعلنا نستبعد النهاية القريبة للتاريخ، وبل ونستبعد له النهاية أصلا، وهو ما يجعل التاريخ مفتوح على كل الإمكانات القادمة، وذلك أن الإيزوتيما هي رحلة البحث عن الإشباعات المختلفة لمطالب الإنسان بينما الميغالوتيما تدفع الإنسان إلى الانتماء إلى جماعات وتكتلات تكون الأصل والملاذ، منها يبدأ التعصب لها، ومنها يبدأ العنف مع غيرها، وهذا "بِمَثَابَةِ الثَّوْبِ الَّذِي يَسْتُرُ التَّعَرِّي فِي خَلَاءِ الْعَوْلَمَةِ"، كما عبر عنه الدكتور صلاح قنصوه[5].

لقد وصف مطاع الصفدي في كتابه **نقد الشر المحض** مجمل نظرية نهاية التاريخ لفرانسيس فوكوياما وهذا مقتبس مما كتب: «الْعَوْدَةُ إِلَى هِيجل مِنْ أَجْلِ إِشْبَاعِ إِطَارٍ مِنَ الْمَفْهَمَةِ عَلَى التَّحَوُّلَاتِ الدَّوْلِيَّةِ الْكُبْرَى، بِمَا يَخْدِمُ الْوَاقِعَ الرَّاهِنَ الَّذِي انْتَهَتْ إِلَيْهِ ظُرُوفُ الرَّأْسَمَالِيَّةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ بِاسْتِخْدَامِ مَقُولَةِ "نِهَايَةُ التَّارِيخِ" كَتَجْرِيدٍ نِهَائِيٍّ لِلْأَيْدِيُولُوجِيَّةِ الرَّأْسُمَالِيَّةِ بِالذَّاتِ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَعْدُو كَوْنَهُ أَيْدِيُولُوجِيَّةً بَالِيَةً، تُجَدِّدُ نَفْسَهَا بِاسْتِعَارَةٍ هِيجِلِيَّةٍ عَبْرَ أَحَدِ مُأَوِّلِيهَا الْكِبَارْ (كوجيف)، وَهَذَا الْمَشْرُوعُ يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَ حَلَقَاتٍ مُتَدَاخِلَةٍ: الْأُولَى لِهِيجلَ والثَّانِيَةُ لِكُوجِيف، وَالثَّالِثَةُ لِفُوكُويَامَا، وَيَجِبُ أَنْ لَا تُؤْخَذَ الْأُولَى وَالثَّانِيَةُ بِجَرِيرَةِ الثَّالِثَةِ الَّتِي هِيَ تَشْيِيدٌ وَاضِحُ الْمَغْزَى وَالْهَدَفِ» [6].

يظهر على فرانسيس فوكوياما أن سقوط السوفيات كان مفاجأة له، مثله مثل هنري كسينجر وتوقعات الغرب كله، فهو يحفل بانتصار اللبرالية الديمقراطية والرأسمالية على الشيوعية، ويوعز ذلك إلى سقوط فكرة جراء مواجهة فكرة أخرى، مبعدا بعض الخصوصيات لدى كلتا الدولتين والأسباب التي عجلت حسم المعركة، تلك العشية التي قال عنها صمويل هنتجتون أنها وَلَّدَتْ وهما بالتوافق والانسجام العالميين، سرعان ما تبدد لأسباب متعددة منها تضاعف الصراعات العرقية واتساع الأصولية[7]، فمن الأسباب التي تثبت هذا الوهم هو أن صمويل هنتنغتون يرهن مشروع السلام والتوافق العالميين بتفوق الولايات المتحدة الأمريكية على كل النماذج الصاعدة الأخرى كالصين الشعبية مثلا وبعض الدول الإسلامية، فالعالم بالنسبة له مقسم إلى قسمين (غرب، وكثرة غير غربية)، لذا فهل هذا ما نطق به ماركس من قبل وقال أن الدولة اللبرالية لا تمثل عالمية الحرية، وإنما مجرد انتصار وتفوق طبقة معينة وهي العالم الأول، والدول المصنعة المتمكنة في المجال الاقتصادي، على حساب حرية باقي الطبقات [8].

لئن كان السوفييت قد تحول إلى الديمقراطية، فإن هذا يقابله في الولايات المتحدة الأمريكية تحول نحوها أيضا وتجلى ذلك التحول في التخلص من التمييز العنصري، حتى يعتلي بعض الزنج رئاسة البلد كله، فالولايات المتحدة الأمريكية لم تبدأ ديمقراطية، ولكنها انتهت امبريالية، حسب الكثير من منتقدي سياستها الخارجية، ولعل حركة احتلوا وول ستريت[*]، وحزب الشاي[**]مظهر داخلي من مظاهر انتقاد اللبرالية والديمقراطية الأمريكية وكذا النظام المالي العالمي الرأسمالي.

ولكن في حقيقة الأمر تبقى الديمقراطية نظاما قديما يتطور مع الزمن، وليست نظاما وليد اللحظة، فهي إذا ليست مآلا تنتهي إليه الأنظمة الشمولية والديكتاتورية المختلفة، وأن ما حدث في النصف الثاني من القرن العشرين ما هو إلا انتصارا لها على مختلف الأنظمة، أو لنقل هو اجتياح بطيء للعالم لم يكتمل إلى حد اليوم.

هل ما حدث في تسلسل الأحداث في القرن العشرين أو في النصف الثاني من القرن العشرين هو حتمية تاريخية أم أن انسجام الأحداث وتكررها خلق تنميطا في ذهن فوكوياما أرشده إلى القول بحتمية التحول إلى اللبرالية؟، وساق في ذلك تجارب كل من إسبانيا وتايوان وكوريا وجنوب إفريقيا واليابان...

ومن أجل عقلنة قراءة التاريخ يتم استدعاء جانب من الجدلية الهيجلية، فاجتياح العالم هو لب ومغزى الفكرة[9] ، وهو الذي أراد فوكوياما أن يثبته على أنه فعل تاريخي، ولكنه في النهاية يبقى فعلا في التاريخ لا فعل التاريخ ذاته، وعموما فإن محصلة النقد المترتبة على فكرة نهاية التاريخ الفوكويامية على أنها التركيب الأعلى للفلسفة الإقصائية التي سيطرت في الفكر الأمريكي وتحقيباته، ولكنها بطريقة أفضع، إنه إقصاء لا يحمل معه أي وعد ولا يحمل أي رسالة لسكان التاريخ[10]، إنه إقصاء لا يظهر في شكل ديكتاتورية كلاسيكية بقدر ما هو واضح على أنه ديكتاتورية فردية فريدة.

تحديد معالم التاريخ العالمي:

بالنسبة لفوكوياما، الْمَعْلَمُ الأول هو المعلم الاقتصادي، وذلك أن العلم والتكنولوجيا، يخلقان إمكانات عديدة لتوفير الإنتاج بأنواعه وبالتالي إمكان إشباع حاجات كثيرة بلا حدود، وهذه هي النقطة التي حددت معالم التاريخ العالمي فبغض النظر عن النمط الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لأي من المجتمعات، إلا أنها تسير وفق غائية اقتصادية فحواها تسخير التكنولوجيا والوسائل المتاحة من أجل الإنتاج، ومن أجل ذلك يتحتم على الإنسان الرقي والتطور والتخلي على بعض النماذج المعيشية القديمة، مثل القبيلة والطائفة والعائلة، والتوجه نحو الانفتاح والتكامل في إطار الدول والمدن الكبرى، وبالتالي فاستنادا إلى انتشار ثقافة الاستهلاك والتطور الاقتصادي؛ فإن الإنسان يسير وفق تاريخ عالمي موحد في أصله متجه تلقائيا نحو اللبرالية الاقتصادية[11].

غير أن هذه القراءة الاقتصادية للتاريخ وإن كانت تمكننا من التوصل إلى كون التاريخ ينزع تلقائيا نحو الرأسمالية فإنها لا تحدد لنا معالم النهاية أو التوجه نحو الديمقراطية، وفي النهاية ما هذه القراءة إلا شكل من أشكال نقد كارل ماركس، لهذا فإن فوكوياما راهن على تطور المنطق والعلوم الحديثة، وهذا اختزال لفكرة تالكوت بارسونز (1902. 1979)، وذلك أن العلوم الطبيعية تسهر على عدم تطبيق العلم في ما يضر الطبيعة، أو تحاول محاربة ذلك، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لكل الأزمنة دوافع ومحفزات للتطور التكنولوجي منها التسابق نحو التسلح، وهو ما يدفع بالإنسان ويلح عليه المضي قدما نحو تطوير العلوم والتكنولوجيا ومنها تطوير مختلف المجالات الصناعية.

محرك التاريخ: يعتقد فوكوياما أن ردة أفعال الناس تجاه معاملة الآخرين هو المحرك الحقيقي للتاريخ وهي استعارة هيجلية تعرف بالتيموس[12]، وهو ما يشكل صراعا وتنافسا بين الناس ومنها تحدث غلبة الغالب على المغلوب، ومنه يظهر التمايز بين السادة والعبيد، وهو ما يحدد لنا معلم التاريخ واتجاهه، ولكن مع الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية يتم إغلاق ملف الصراع من أجل التقدير والاحترام، ولكن ماذا تمثل حركات التحرر في القرن العشرين وماذا تمثل الثورة التونسية والثورة المصرية باعتبارها انطلقت من منطلقات تيموسية بحتة، هل تمثل معالم سيناريو آخر لانتهاء التاريخ أو ابتدائه؟

حقيقة قضية الصراع من أجل نيل الاحترام ما هي إلا صراع من أجل السيطرة والتغلب تنتهي بتحديد الغالب والمغلوب، ولكن نهاية التاريخ ما هي إلا تحديد المنهزم إلى الأبد والمنتصر إلى الأبد، مع التحفظ حول سرمدية النصر والهزيمة...، وتتضح النهاية بتقسيم العالم إلى أسياد للأبد وعبيد للأبد، وذلك أن أي صراع يختتم بتحديد المنتصر والمنهزم، كما أن صلب المشكلة لا يكمن في الاعتراف بالآخر من حيث الوجود الانطولوجي، بل من حيث النظرة إليه نظرة استعباد أم نظرة معبود.

وهناك شرخ بين السياسة الاقتصادية التي قال فوكوياما أنها تحتم على المجتمعات الانسجام والتناغم في الوقت الذي قال فيه بأن اللبرالية تجعل الناس يقيمون شعائرهم الدينية ويشعرون بانتماءاتهم العرقية بكل حرية، ولكن إن لاحظنا ما هو موجود فعليا في ما يجري العالم اليوم في قلب اللبرالية الأوروبية وجدنا ان هناك الكثير من القضايا ما زالت مفتوحة وتساهم في خلق الكثير من المشاكل وتأجيج الصراعات بين مختلف والأديان والمذاهب، منها ما يخص الدين الإسلامي في أوروبا[13].

وهكذا فإن لكل عصر تساؤلاته وحيرته واضطراباته، ومن المعقول أن العصر الذي يلي هو عصر استقرار تلك التساؤلات والاضطرابات، في وقت تفتح فيه تساؤلات واضطرابات جديدة خاصة بذلك العصر، فقد كانت أوروبا تطمح للتخلص من قيود الكنيسة المسيحية والديانات المعيقة لتطور العقل، لهذا فإن أوروبا بالكاد كانت تعرف أن منحى التاريخ سيصل إلى سيادة العقل وسيطرته بدل الكنيسة، ناهيك عن طرح السؤال: إلى أين؟ كما أن العالم الوثني القديم وهو الباحث عن استقرار انطولوجي وروحي والباحث أيضا على إجابات

لتساؤلاته وحيرته وغيبته الميتافيزيقية، يرى أن نهاية التاريخ هي التوحيد أو بصورة أخرى حلول دين سماوي يعيد للإله الأول والأكبر اعتباره وينبذ تعدد الآلهة...

غائية التاريخ:

يؤمن فرانسيس فوكوياما بغائية التاريخ لذا فإنه يطرح أسئلة وافتراض بعض الحوادث وكأنه يجزم بأنها من الاستحالة بما كان[14]، وما دام التاريخ غائيا فإنه لن يعيد نفسه أبدا، ولكن إذا كان كذلك؛ فهل يمكن أن نقول أن الديمقراطية أسبق من الشيوعية فهي أكثر رجعية منها؟ وهل كانت الشيوعية مرحلة أرقى من الديمقراطية حقا؟ أم أنها جزء من كليتها التاريخية؟

إن الذي يطرح السؤال التالي: هل التاريخ غائي؟ عادة ما ينطلق من أحداث التاريخ فيدهشه اختلاف الأحداث وتقاربها وتشابكها وتداخلها، ويدهشه تفسير بعضها لبعضها في شكل أشبه بالفسيفساء المزخرفة، ولا يمكنه أن يتخذ قرارا بشأن الإجابة عن هذا السؤال إلا معتمدا على تخمينه وترجيحه وميله الشخصي، وهو في ذلك يفتقد للبرهان القاطع ليس فقط تجاه نفسه ولكن تجاه الآخرين أيضا، غير أن رجال الدين هم أميل للإجابة بنعم هناك غائية تاريخية تجيب عليها تعاليم الدين بصيغ مختلفة ومتعددة.

الرجوع إلى الهمجية والتخلف:

"...إِذَا حَاوَلْتُ أَنْ أَتَأَمَّلَ تَارِيخَ أُورُوبَا وَأَمْرِيكَا الْحَالِي، فَإِنِّي سَرِيعًا مَا أَصِلُ إِلَى نَتِيجَةٍ تُشْبِهُ الْعِبَارَةَ الَّتِي اشْتَقُّهَا هُنَا مِنْ أَقْوَالِ الْمُؤَرِّخِ الْإِنْجْلِيزِي فَيْشَر، وَالَّتِي يُمْكِنُ تَلْخِيصُهَا عَلَى النَّحْوِ التَّالِي: التَّقَدُّمُ -تَارِيخِيًّا- وَاقِعَةٌ مُصَاغَةٌ بِوُضُوحٍ وَدَلَالَةٍ، إِلَّا أَنَّ هَذَا التَّقَدُّمَ لَيْسَ قَانُونًا طَبِيعِيًّا، بِمَعْنَى أَنَّ الَّذِي حَقَّقَهُ جِيلٌ مَا؛ يُمْكِنُ لِجِيلٍ تَالٍ أَنْ يُضَيِّعَهُ..." [15].

الإنسان إلى أين؟ فرغم أن الإنسان يفق في القمة وينظر إلى تراث البشرية خلفه وهو فخور بالوصول إلى تلك القمة، يقف على قبور من ساهم في ذلك الوصول إلا أنه لم يوفق لذلك ولكنه ساهم فيه، ولكن حري به طرح السؤال: إلى أين؟ لماذا يجيب الإنسان عن هذا السؤال بإجابة تفضي تلقائيا إلى اللبرالية بدل التوجه نحو الأفضل والأحدث؟ هل هو شعور حقيقي بشيخوخة الجنس البشري؟[16] أم لأن التمييز بين المتمدين والهمجي أصبح صعبا منذ القرن العشرين، في حين كان سهلا وغريزيا في القرن التاسع عشر أو قبل ذلك قليلا[17]، نعم هذا ما يروج له الغرب أو على الأقل البعض ممن يروجون لفكرة النهايات في التاريخ.

لإن قلنا بأن التوجه نحو الديمقراطية حتمي، وأن كافة الشعوب استنادا إلى ما تقتضيه تطور العلوم الطبيعية وتطور وازدهار الاقتصاد ونمو الوعي بالمشاركة السياسية والمطالبة بالحقوق، فهل هناك عوارض وحوادث وطوارئ تعيد الإنسان إلى همجيته؟ ولنضرب مثالا على ذلك (الحرب على الإرهاب، حروب الأفيون والمخدرات، حركة الاستعمار الحديث، الثورات الدينية وقيام أنظمة شمولية ثيوقراطية، نجاح المتطرفين في انتخابات ديمقراطية، حرب نووية عالمية، أزمة اقتصادية عالمية)، ومن هنا يمكن أن نطرح السؤال التقليدي الذي طرحه فرانسيس فوكوياما: هل هناك برابرة على الأبواب؟

إن التحول الاقتصادي القادم بعد نفاد النفط يغير الكثير من المفاهيم ويحولها، كما يذكي ويؤجج حروبا ما كان أحد ليحتسب لها، ولا يعلم تفاصيلها أو نتائجها، وتحسا لما قد يأتي، يضع الانسان المتفائل فكرة الخلاص نصب عينيه.

الأمل وخلاص الإنسانية:

ما من نظام سيرضي الإنسان إرضاء تاما، (أرسطو).

ما العلاقة بين نهاية التاريخ ونهاية المأساة الإنسانية؟ فعلى الأرجح يمكن أن نعتبر كل التوقع يطرحه الإنسان بخصوص نهاية التاريخ هو مجرد حلم لذيذ، أو توقع محتمل على أحسن الأحوال في ظنه!

إن جون جاك روسو لما قال أن على الإنسان الرجوع إلى البدائية والحياة البسيطة، هو في الحقيقة لم يجزم أن الإنسان سيتجه إلى تلك الحياة بالضرورة، ولكنه وجد خلاص الإنسان من معاناته ومشاكله تنتهي مع رجوعه إلى تلك الحياة البدائية البسيطة الأولى، بل وذهب إلى أبعد من ذلك وقال بان سعادة الإنسان مرهونة بالتخلي عن التكنولوجيا الحديثة -على بساطة التكنولوجيا في عصر روسو-، هيجل أيضا أنهى التاريخ بتحقيق رغبة الإنسان الأولى والأهم في نيل التقدير والاحترام، بينما أنهاه كارل ماركس بنهاية الطبقية ومشاعية الإنتاج والمال، في

حين أنهاه فوكوياما بما يسمى بالديمقراطية واللبرالية، وهي ليست نهاية للتاريخ بقدر ما هي نهاية لمأساة الإنسان وما عاناه عبر هذا التاريخ الطويل، إن نهاية التاريخ عند هؤلاء، تطابق خلوده إلى الراحة.

هل بالضرورة غائية التاريخ تؤدي بنا إلى الرتابة وإلى نهاية سعيدة للتاريخ بهذا الشكل أو بأشكال أخرى، بهذا المنظور يمكن أن نعتبر عصر الأنوار نهاية حقيقية للتاريخ بالنسبة للعصور الوسطى، ولكنها نهاية سيئة جدا بالنسبة للحضارة العربية والإسلامية، ولكن إن كنا نلمس في ذلك نوعا من التفاؤل، فإن العصور الوسطى أيضا نهاية للعصر الإمبراطوري الروماني والعصر القديم ككل، رغم ذلك لم تكن هذه النهاية جيدة بالنسبة لأوروبا، ولكنها نهاية مثلى بالنسبة بعض الأمم الشرقية.

من نهاية التاريخ إلى محاولة إنهاء التاريخ:

"... إِنَّ هَذَا لَهُوَ وَصْفٌ مُخْتَصَرٌ لِلِاتِّجَاهِ الَّذِي أَدْعُوهُ التَّارِيخَانِيَّةَ، وَهِيَ فِكْرَةٌ قَدِيمَةٌ أَوْ بِالْأَحْرَى مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأَفْكَارِ الْمُتَرَابِطَةِ بِشَكْلٍ وَاسِعٍ، وَالَّتِي قَدْ أَصْبَحَتْ –لِسُوءِ الْحَظِّ– تُمَثِّلُ جُزْءًا كَبِيرًا جِدًّا مِنْ مُنَاخِنَا الرُّوحِيِّ الَّذِي يُؤْخَذُ عَادَةً كَقَضِيَّةٍ مُسَلَّمٌ بِهَا، وَيَصْعُبُ فِيَ أَيِّ وَقْتٍ أَنْ تَكُونَ مَوْضِعَ شَكٍّ..." [18].

ما نهاية التاريخ إلا صراع بين إيديولوجيات (الديمقراطية والشيوعية والثيوقراطية والديكتاتورية) على أساس أن حق الاعتراف بقيمة الشعوب مدفون في تلك الأنظمة أحجم أربابها على الاعتراف للشعب بقيمته الحقيقية، فهم في صراع دائم يحسم في الأخير لصالح الشعوب الطامحة للحرية والمساواة.

هل يمكن أن نقول أن محاولات إنهاء التاريخ كانت على ثلاثة طرق، الفاشية والنازية من جهة والشيوعية من جهة أخرى، واللبرالية من طريق مخالف، لم يكتب لأي من هذه الأنظمة القرار والبقاء، غير اللبرالية التي ما زالت قائمة إلى اليوم، أم أن هذا لا يصح وإنما الصحيح هو أن العالم كانت تتجاذبه قوتان اشتراكية ورأسمالية كانت كل واحدة تسعى إلى إنهاء التاريخ كما يتوافق معها، وتوجيه مصير العالم حسب ما ترسمه تلك القوة.

ماذا عن المساواة في الدين الإسلامي أهي نهاية سعيدة للعبيد؟ أهي نهاية للتاريخ بالنسبة للأمم المحتقرة المستعبدة المستضعفة، ماذا عن الحرية التي يحققها الإسلام للمسلمين أو يضمنها بشروط؟ وإن كان بالإمكان أن تكون نهاية سعيدة للجميع فإنه ليس هناك ضامن للمحافظة عليها، وذلك أن المخاطر والتناقضات تأتي تباعا للأحداث الطارئة، والأخطار الحادثة القادمة من الداخل أو من الخارج، كما أن فكرة هبوط المسيح المخلص إلى الأرض لدى المسيحيين وتقابلها فكرة المهدي المنتظر لدى المسلمين، وفكرة شيوع اللبرالية والديمقراطية هي في الحقيقة ليست نهاية مقتربة للتاريخ؛ بقدر ما هي لحظة تاريخية مرتقبة قد لا تتحقق أصلا...

قد يعتقد البعض أن عملية إنهاء التاريخ ما هي إلا صورة تخيلية استشرافية لمآل التاريخ ورتابة مظاهر التغير العالمية فيه، أو هي استنباطية استنتاجيه لمسار تاريخ البشرية، ولكن الحقيقة التي أقصد ها هنا هي محاولة إنهاء التاريخ، وذلك أن الكثير من الأمم الحية المستعدة لقيادة التاريخ أو الطامحة إلى ذلك، تلك الأمم التي تحس بكيانها وذواتها كأمة فاعلة في التاريخ أو عليها أن تكون كذلك، تسعى كلها لإنهاء التاريخ في أحسن صورة تخدم تطلعاتها ورغبتها في آخر السباق، ولو استوجب ذلك استخدام القوة، أو الخداع.

إن نهاية التاريخ لا تكون مع أمريكا ولا يمكنها أن تكون في العالم اللبرالي ولا الملحد، ولكنها تنتهي في مهدها الأول، فالشعوب المتدينة وبصورة أخرى وكما يقول ريتشارد بولييه وهو أحد أندر المؤرخين المعارضين لما يطرحه صمويل هنتغتون وفرانسيس فوكوياما في كتابة الحضارة الإسلامية المسيحية[19] يقول: "إن الحضارات الساعية إلى المواجهة لا يمكنها البحث عن مستقبل مشترك"[20]، لذا فهناك من يجزم أن منتهى الصراعات العالمية وإن كانت لها الكثير من المبررات فإنها في جوهرها صراعات دينية، وستنتهي صراعات دينية مصيرية في المستقبل.

وهو الشيء الذي يؤمن به جاك دريدا تجاه ما يفكر به فرانسيس فوكوياما، فقد علق على هذا الأخير وكتابه المذكور ووصفه بأنه لا يعدو كونه إعادة نشر متسرعة للدراسات الأخروية المسيحية انطلاقا من تأويل معين لهيجل لصالح الدولة اللبرالية.

كارل بوبر في وجه التاريخانية:

يعترف فوكوياما في الأخير بأن قضيته كلها تؤول إلى اللا معنى وذلك في قوله: «إِنَّ التَّجْرُبَةَ تُلَمِّحُ إِلَى أَنَّ الْبَشَرَ لَا يَسَعُهُمْ النِّضَالُ مِنْ أَجْلِ قَضِيَّةٍ عَادِلَةٍ، لِأَنَّ تِلْكَ الْقَضِيَّةَ كَانَتْ قَدْ انْتَصَرَتْ فِي جِيلٍ سَابِقٍ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ ضِدَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ بِالذَّاتِ، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ

مُتْعَةِ النِّضَالِ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى فَإِنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ بِسَبَبِ الضَّجَرِ، لَيْسَ بِإِمْكَانِهِمْ تَخَيُّلُ أَنْفُسَهُمْ فِي عَالَمٍ بِدُونِ صِرَاعَاتٍ، وَإِذَا كَانَ الْجُزْءُ الْأَكْبَرُ مِنَ الْعَالَمِ الَّذِي يَعِيشُونَ فِيهِ يَتَمَيَّزُ بِدِيمُقْرَاطِيَّاتٍ لِبِرَالِيَّةٍ مُزْدَهِرَةٍ وَسَلِمَيةٍ فَإِنَّهُمْ عِنْدَئِذٍ سَيُقَاتِلُونَ ضِدَّ هَذَا السَّلَامِ وَذَلِكَ الْإِزْدِهَارِ وَضَدَّ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ...» [21]، ومما لا شك فيه أن هذا الكلام ليس فتحا لآفاق أخرى لامتداد التاريخ أو التنبؤ بشكل من أشكال التاريخ يكون جزءا من فكرة النهاية التي يروج لها فرانسيس، ولكن هي اعتراف بأن التاريخ مفتوح على مصراعيه على المجهول، وما هذا التنبؤ سوى فرضية من فرضيات انفتاح التاريخ على الظلام...، أي أن ما انتهى إليه فوكوياما هو ما يبدأ به من جديد كارل بوبر.

لقد كتب الفيلسوف الألماني سبيكر، كتابا عن تدهور الحضارة الغربية وتوقع مستقبلا مظلما للغرب وللعالم كله من وراء الغرب، ثم جاء العالم الانجليزي جورج اروين، وكتب كتابًا اسمه (**العالم سنة** 1984)، وكان كاتبًا متشائما وتوقع أوضاعا سيئة، لكن الواقع كان أكثر تشاؤمًا منه، فإن الأوضاع التي مر بها العالم عام 1984 وما بعده كانت أكثر سوءا وسوداوية وقتامة مما تصوره ذلك المفكر الإنجليزي.

أما ما قاله من قبل أدولف هتلر حينما تحدث عن الرايخ الثالث الذي سيعيش ألف عام على حد زعمه! ولكن هذا التوقع اصطدم بالواقع المخالف تمامًا لما يقول، فكيف يمكن الجمع بين هذا الأمر بالتحليل العلمي الذي يكون أحيانا فوق مستوى فهم الإنسان العادي وإدراكه، مع تبسيطه التبسيط المناسب والملائم لواقع حال جمهور المسلمين والغرب على حد السواء الذين يحتاجون إلى هذا الموضوع؟، ثم كتب الفيلسوف الإنجليزي الآخر أيضًا هولن ويلسون، عن سقوط الحضارة الغربية، ضمن منظومة متسلسلة من البحوث والكتب والدراسات القديمة، التي كانت تتحدث عن سقوط وشيك للعالم الغربي، أليس هذا ضرب من التنجيم الاستقرائي العقلي؟

كلمة التاريخ:

إننا نواجه التاريخ بكل ما نملك من قوة فهل كان التاريخ يواجهنا بكل ما يملك؟ ورغم ذلك فإن للتاريخ كلمته الأولى والأخيرة على الإنسان دون الحاجة إلى عناء أي منهما (التاريخ والإنسان)، هل نحن الذين ننهي التاريخ أم أن التاريخ هو الذي ينتهي عندنا أو ينهي روحه فينا؟ بل ينهي إدراكنا لوجودنا فيه، فإذا كان يمكننا أن ننهيه فإنه غير متعالي ولا غائية ينشدها، لكن إذا كان ينهي نفسه بنفسه رغما عنا؛ وكان مصيره في يده، فإنه ينهينا فيه وينهي كل تصور لنا في إنهائه.

إن محاولة إنهاء التاريخ أو التحدث في نهاية محتملة له بأي صورة من الصور تجعلنا نقف متسائلين: هل التاريخ ماضي فقط أم مستقبل أيضا؟ ظاهر أم مضمر، فإن كان يمكننا أن ننهي أي حقبة تاريخية مضت، بقراءة فلسفية تاريخية معينة، فإنه لا يمكننا أن نتجاوز ذلك إلى الخوض في حقب تاريخية لم تحدث أصلا (المستقبل)، فسيكون ذلك مجرد عبث لا أكثر، وذلك أن اللحظة التاريخية لا مجال للتكلم فيها أو عنها إلا بعد أن تحدث فعلا، فنهاية كل لحظة تاريخية هو وقت حدوثها وانقضائها، ولا يمكن أن تنتهي لحظة قبل ذلك، ولذا كان من الحتمي والضروري أن نعترف بأن التاريخ حاضر وماضي لا مستقبل له، حتى لا نظهر للدفاع عن فكرة مفادها أن الإنسان يعيش خارج الزمن، لذا فأنا أقول أن الأجدر بالإنسان أن يطرح سؤالا أو أسئلة عديدة عن بدايات التاريخ.

في الختام أستعير من أحد السوفسطائيين "بروتاغوراس" قوله: «لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعْلَمَ إِنْ كَانَ الْآلِهَةُ مَوْجُودِينَ أَمْ غَيْرَ مَوْجُودِينَ، فَإِنَّ أُمُوراً كَثِيرَةً تَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ هَذَا الْعِلْمِ، أَخُصُّهَا غُمُوضُ الْمَسْأَلَةِ، وَقِصَرُ الْحَيَاةِ »، وعلى هذا النسج والمنوال أقول: يبقى التاريخ مفتوح الأبواب والنوافذ ويبقى المستقبل الغامض بوصفه ما هنالك، لذلك لا داعي الى الايقانيات والدوغمائيات، فالمستقبل لا يمكننا أن نعيشه إلا من خلال انتهائه أي من خلال وقوعه فعلا.

الهوامش :

1. زهير اليعكوبي، "نحو سيكو- سياسية تيموسية، سلوترداياك فوكوياما"، مجلة الفكر العربي المعاصر، الصادرة عن مركز الإنماء القومي، بيروت، العدد 148- 149، د.ت، ص62.
2. (فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط1، القاهرة، 1993، ص09).
3. عبد الوهاب المسيري، الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ: رؤيةٌ حضاريةٌ جديدة، ط4، دار الشروق، القاهرة، 2005.
4. فوكوياما، مرجع سابق، ص08.
5. صلاح قنصوه في ترجمة كتاب صمويل هنتنغتون، صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، ط2، 1999، ص20.
6. مطاع الصفدي، نقد الشر المحض، مركز الإنماء القومي، بيروت، 2001، ج1 ص77.
7. صمويل هنتنغتون، صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي، ترجمه إلى العربية طلعت الشايب، ط2، 1999، ص52.
8. عمر سالم سعد الله العبيدي، "إشكالية الموقف الغربي من الأمة الإسلامية"، بحث مقدم لمؤتمر الإسلام والتحديات المعاصرة، جامعة الموصل، 2-3/ 4/ 2007، ص411.

، ولكنها طالت كامل نيويورك منذ 17 وحتى 23 سبتمبر، وقد 2011 سبتمبر17الأمريكية في بمدينة نيويورك *بدأت حركة احتلوا على شكل مظاهرات في منطقة وول ستريت واجهتها الشرطة الأمريكية بالاعتقال والقبض على جميع المحتجين بتهمة عرقلة حركة المرور، والذين بلغ عددهم 80 إلى 100 شخص، بعد هذه الاعتقالات نقلَ المتظاهرون موقع القريبة من اعتصامهم إلى حديقة زوكوتي